سلكه ما ضاراه بل ظاهراه في إبداعه ونبوغه ، وكان ذلك على هـذه اللغة من نِعم الله . فتحرّرَ (ابن الحسين) من تقليده ، ومشى مشيَ المُدِلّ المستقل في تجديده ؛ والمقلد عبد ، ولا يرضى بالعبودية حرٌّ ؛ والتقليدُ عدم ، والاستقلال كون ، وشَمَّرَ المتنبي ذاك الشعر ، وأظهر (أحمد) معجزه

ولي فيـك ما لم يقل قائل … وما لم يسر قمر حيث سارا (١)

ورأت العربية أكبر شاعر ، وظهر في العرب شاعرهم

ودع كل صوت غير صوتي فإنني … أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

وما الدهر إلا من رواة قلائدي … إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا … وغنى به من لا يغني مغرّدا

محمد إسعاف النشاشيبي

(١) للمتنبي في سيف الدولة وقبله :

وعنـدي لك الشرد السائرات (م) لا يختصصن من الأرض دارا

قواف إذا سرن عن مقولي … وثبن الجبال وخضن البحارا

قصة واقعـــة

للأستاذ علي الطنطاوي

« أغارت سيول هائلة ليلتي ٢٤ – ٢٥ اكتوبر على حارستا والمعظمية والضمير من أكبر قرى دمشق الشمالية ، فخربتها ولم تدع في الضمير حجراً على حجر ، وقتلت الناس بالمئات وتركت من تركت بلا مأوى ولا مال ... »

كانت « منطرة (١) » « سعد الخطار » أعلى منطرة في « دوما (٢) » ، وكانت تطل على كروم دوما الواسعة والسهول التي تليها ممتدة إلى ثنيّة العقاب التي انحدر منها خالد مَقْدَمَه من العراق في طريقه إلى اليرموك ساحة الشرف الخالد ، وتشرف من هناك على جنان الغوطة تلوح من ورائها دمشق جنة الأرض أقدم مدن العالم ، يرى خيالها حيال الأفق بمآذنها التي لا يحصيها عدّ ، ومسجدها العظيم تتوّج هامته قبة النسر الباذخة الشمخرة ، والمنائر السامقة العالية ، ويرى منها قاسيون الحبيب ، وهاتيك الجبال ... وكان سعد الخطار سيد شباب الضمير (١) ، وأشدهم أسراً ، وأجرأهم جناناً ، وأقواهم ساعداً . اشتغل منذ عشر سنين ناطوراً في كروم دوما ، فعرف فيها بالشدة والبأس ، فتجنب الناس كَرْمه وابتعد عنه اللصوص والطرّاء . وكان يجول المساء في أنحاء الكرم أو ينزل إلى البلد ، وخيزرانه في يده ، فيجتمع النساء في طريقه ينظرن بإعجاب إلى قامته المديدة ، وصدره الواسع ، وأكتافه العريضة ، وشاربيه الأسودين المفتولين ؛ ولكن سعداً كان مع هذه الشدة وهذا البطش رقيق العاطفة ، مرهف الحس ، يحمل بين جوانحه قلب شاعر شاعر ...

* * *

كان عصر اليوم الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٣٧ وكانت السماء متلبدة بالغيوم ، والأمطار ترش رشاً خفيفاً ، والدنيا مظلمة ترى كأنها في ساعة الغروب ، وكان سعد في منطرته ينظر إلى الكرم الواسع الذي حرسه الصيف كله ، وكان موقَراً بالثمر تبدو عناقيده الحمر والبيض من خلال الورق الأخضر كأنها عقود اللؤلؤ والياقوت ، يمتد إلى حيث لا يدرك البصر حافلا بالحياة ، فرآه قد اصفرت أوراقه وعطل من الثمر وعاجله الخريف فذوت أوراقه واساقطت تطير مع الريح ؛ ورأى أشجار المشمش التي كان يبصرها دائماً عن يمين الكرم خضراء زاهية ، قد تجردت ولم يبق عليها إلا أوراق صفراء جافة ؛ ثم هبت رياح باردة من رياح الخريف فلفحت وجه سعد ، وحملت هذه الأوراق الذاوية فألقتها في منطرته فكان يسمع لوقعها تحت المطر صوتاً حزيناً مؤلماً ، فشعر سعد بالأسى يملأ قلبه ... سيضطر غداً إلى فراق هذه المنطرة الحبيبة ، وهذا الكرم الذي ثابر على حراسته عشر سنين وتعلقت حياته به ، وانتثر قلبه في أرجائه ، فأصبح جزءاً من حياته وقطعة من نفسه ، لا غنى له عنه ، ولا حياة له بدونه ... لقد ملأوا

(١) المنطرة في عرف الشاميين غرفة من أعواد سقفها من القش أو من أوراق الشجر تبنى على أربعة أعمدة عالية من الخشب يقيم فيها الناطور والناطور فارسي معرب من القديم والاسم النطارة والمنطرة اسم مكان منها

(٢) بليدة على ثلاثة عشر كيلا من دمشق ، يصلها بها خط ترام كهربائي تعد هي وضواحيها عشرين ألفاً ، وهي أشهر قرية في سورية بكروم العنب الأحمر ، ويصنع الدبس والزبيب

(١) الضمير قرية كبيرة شمالي دمشق إلى الشرق على سيف البادية قال المتنبي :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا … ليحدثن لمن ودعتهم ألم

أمس آخر صندوق (سحارة) من العنب جموه من بقايا العناقيد ولم يبق فى الكرم ما يحرسه ، فشعر كأنه يفارق ولداً عزيزاً عليه ، قد رباه وتعهده بالعناية ثم فقده ... أو لم يرافق الكرم وهو لا يزال حصرما ؟ أو لم يتعهده حتى نضج وأينع ؟ أو لم يشاهد التجار كل مساء وهم يأتون ومعهم العمال بالعشرات يملأون صناديق (سحاحير) العنب ، وهم يغنون ويصيحون ويترعون الفضاء أنساً ؟ كم بين هذا المشهد وبين مشهدهم أمس وهم يملأون آخر (سحارة) صامتين تلوح على وجوههم أمارات الحزن والكآبة ؟ لم يستطع سعد أن يراهم على هذه الحال فانسل إلى منظرته ووضع رأسه بين يديه يفكر حزيناً ملتاعاً ...

* * *

جلس سعد يتأمل هذا المشهد ذاهلاً غائباً عن نفسه والمطر يشتد ويقوى ، والماء ينفذ من سقف المنظرة ، وكان سقفها من ورق الكرم الجاف ، ويبلل رأسه وثيابه لا يحس به ولا يحفله لأنه ابن البر وصديق الطبيعة ، ولأنه كان ذاهلاً عن نفسه لم يصح حتى أسدل الليل ثوبه الأسود على الدنيا فغيب تحته هذه المشاهد كلها ... صحا سعد فنفض الماء عن شعره وثيابه ، ونشر خيمته فوق رأسه لتمنع عنه المطر ، وأوقد مصباحه الألمانى الذى يظهر للسائرين فى هذا المرقب العالى كأنه نجم من نجوم السماء ... وجلس يفكر ...

ذهب به الفكر إلى بعيد . فذكر حين جاء هذه المنظرة مع عمه وابنة عمه ليلى ، وكان ذلك قبل أحد عشر عاماً . لقد كان فى السادسة عشرة ، وكانت هي فى التاسعة من عمرها ، وكان عمه ناطور الكرم يحرسه منذ ثلاثين سنة ، وهو الذى بنى هذه المنظرة وأعاد بناءها أكثر من عشرين مرة إذ كانت تهدمها الرياح والأمطار والسيول . لقد تصور عمه بقامته العالية وجسمه المتين وظهره الذي انحنى قليلا تحت أعباء الزمان ، ولحيته البيضاء ... لقد كان عمه قوياً شجاعاً وكان سعد يعجب به كثيراً كما كان يحب ابنته ليلى ... أحبها منذ كانت طفلة ولكنه لم يكن يعرف أنه يحبها ، ولم تكن كلمة الحب دائرة على ألسنة القرويين ، بل كان من العار على الشاب أن يذكرها لفتاة ... لم يكن يعرف أنه يحبها ولكنه لم يكن يستطيع أن يبتعد عنها أو أن يمر عليه يوم لا يراها فيه ؛ وإذا هو لقيها وذهب معها يلعب أو يرعى العنزات أو يسوق البقرة إلى المزرعة أو يملأ الجرة من العين ، إذا كان معها ينسى الدنيا كلها ولا يفكر فى شيء ...

ذكر حين جاء هذه المنظرة أول مرة مع عمه وابنة عمه ليلى وحين تركه عمه مع ليلى لينزل إلى دمشق ، وأوصاه بأن يعتنى بها ، ويحرس الكرم ...

— لقد صرت شاباً يا سعد . كن عاقلا وشجاعاً . لا تدع ليلى تنزل فى الليل من المنظرة . إذا رأيت وحشاً أو سارقاً فأطلق عليه النار . لا تخف من شيء ... هذه هى البندقية ...

وذهب عمه ، وهو يتبعه ببصره . فلما غاب عن عينيه أحس سعد بأنه غدا منذ تلك اللحظة رجلا ، وأنه هو حامى ليلى ، وحارس الكرم ، وأنه يستطيع أن يطلق النار من البندقية كما كان يفعل عمه تماماً ، وتمنى من كل قلبه أن يرى وحشاً أو لصاً ليرى ليلى شجاعته ورجولته ، ولكنه لم ير شيئاً .

ذكر كيف قضى الليل مع ليلى ، وكانت ليلة قمراء رخية النسيم لطيفة . فتحدثا وتبادلا النكات ، وأحس بلذة لا تشبهها لذة ، ولكنه لم يمسها بيده ، ولم يذكر لها كلمة الحب لأن الشرف والأمانة كانت شعار الشباب فى تلك الأيام ، وليلى ابنة عمه وعرضه ائتمنه عمه عليها ، والله شاهد عليه ...

وقفز به الفكر إلى بلده الضمير ، وقد كبرت ليلى وحجبت عنه فلم يعد يراها إلا على العين أو فى الحقل ؛ ولم يكن يمنعه الحجاب من رؤيتها لأنه حجاب شرعى يظهر الوجه والكفين ويستر كل شيء ، لا كحجاب المدن الذى يستر الوجه بغشاء رقيق يزيده فتنة وجمالا ثم يكشف العنق والصدر والساق وما فوق الساق ، ويظهر الكف والساعد ... فكان يحدثها ويصحبها فى الطريق ؛ ولم يكن بينهما سوء ، لأنها خطيبته السماة عليه منذ كانا صغيرين ... فهى له ، ولم يجرؤ شاب فى القرية على خطبتها احتراماً لسعد ، وخوفاً من بطشه ...

ومرت فى ذهنه صورة العرس وحفلاته ، ووفود القرى المجاورة والولائم العامة فى الساحات والطرق ، و (الدبكات)

والأهازيج ... مرت في ذهنه مراً سريعاً ، فأبصرها حية قريبة كأنما كانت أمس ، وقد كانت منذ سبع سنين لم ير فيها من زوجته ليلى إلا ما يعجبه يرضيه . ولم تغضبه مرة واحدة . كانت تحيا من أجله ، تهيىء له الطعام وترتب الدار ، وتنتظره حتى يجيء من عمله . فإذا جاء رآها قائمة وراء الباب منتظرة فقبلت يده ، ثم أعانته في نزع ثيابه ، وصبت على يديه الماء حتى يتوضأ ويغسل رأسه ووجهه بالصابون ، ثم قدمت إليه الطعام ، ولم تدخر وسعاً في تسليته وإيناسه . وإذا كان كئيباً أو مهموماً رفهت عنه وواسته . وأضاق مرة ولحقه الدائنون حتى هددوه بالسجن من أجل عشرين ليرة ، فلم يشعر إلا وزوجته تقدمها إليه زاعمة أنها قد وفرتها من نفقات المنزل ، فصدقها ووفى دينه ؛ ثم علم بعد أنها باعت حليها التي لا تملك غيرها ...

كانت مثال الزوجة الشرقية المسلمة التي تعيش لبيتها وزوجها وتتخذه سيداً لها ؛ وكان هو مثال الزوج الوفي الصالح الذي يشتغل ويحيا لزوجته وبيته ، ليس له سهرة ولا خليلة ولا عادة من العادات السيئة التي تذهب الأموال وتشقي العيال ...

ثم ذهب الفكر بسعد إلى ولده ، ولده الوحيد يسار ، فهاجه الشوق إليه ، وبرّح به الحنين إلى بيته ، وغلب على حبّه لهذه الأرض وتعلقه بها . وكان الليل قد انتصف ولم يذق سعد مناماً فنهض ورفع طرف الخيمة فنظر فإذا السماء صافية قد انقشعت عنها الغيوم ، وطلع القمر من وراء الأفق هلالاً ضعيفاً يلقي على الدنيا نوراً كابياً ، فرأى الكرم أسود مظلماً فعاوده الحنين إليه والحزن على فراقه ؛ وكانت منزلة الكرم من نفسه كمنزلة زوجته وولده ، بل كانت هذه المنطرة أحب إليه من بيته . وجعل يتأمل الكرم فامتلأ قلبه أسى ؛ وذكر ليلى ويساراً فأزمع الرحيل ولكنه اضطر إلى انتظار الفجر ، ولبث صامتاً فغلب عليه النعاس فأغفى إغفاءة قصيرة ثم نهض مذعوراً يرتجف . لقد رأى حلماً مرعباً فتعوذ بالله وسأله أن يحرس زوجه وولده ، ولم يطق البقاء فقام يجمع أمتعته — وما أمتعته إلا فراش ولحاف وبساط وخيمة وصندوق صغير فيه قدر وأطباق وإبريق للشاي — ويلقي على المنطرة النظرة الأخيرة كأنه يريد أن يثبت صورتها في نفسه ، وأن يودع ما فيها من ذكريات لذة هي أعز ما يملك في حياته ، ثم نزل إلى دابته والفجر يهم بالانبثاق ...

* * *

راقه سكون الليل وجمال الفجر وهذه الكروم الواسعة التي استيقظت وتسربت إليها خيوط النور من ناحية الشرق فأضاءت صفحتها ، فاشتد به الحنين إلى زوجته وولده ، وشعر أن حبه لهما قد نما في هذه الساعة وازداد وطغى على نفسه ، فجعل يتصور حركاتهما وسكناتهما ، وكيف يخرجان لاستقباله ، وكيف يتعلق به يسار فيرفعه إلى وجهه ويقبله ؛ ورنت في أذنيه كلمة (بابا) حلوة مستحبة ، وشعر بعالم من الحب والعطف والوئام يغمره ، حتى أحس بنفسه يطير على متن الهواء في حلم فاتن لذيذ ، فانطلق يغني شتى الأغاني القديمة وصوته العذب القوي يشق السكون ويوقظ الطبيعة ، فتجاوبه الديكة من الكروم المجاورة بزقائها ، والعصافير بسقسقتها الحلوة

* * *

أشرف على البلد ضحى ، فتأمل الفضاء فلم يبصر شيئاً ، أين البلد ؟ هل أخطأ الطريق ؟ أم هو لا يزال بعيداً عن البلد ؟ لقد نظر حوله وأنعم النظر فلم يشك أنه حيال البلد . لقد سلك هذا الطريق مئات المرات ، ويستطيع أن يسلكه مغمض العينين ، فكيف يخطيء أو يضل ؟ لا شك أنه على صواب ، وأنه قد وصل ، ولكن أين البلد ؟ وأحسّ سعد كأنه قد بدأ يجنّ . أتختفي بلد برمتها أيها الناس ؟

ودنا حتى وصل البلد ، فلم يجد إلا أكواماً من التراب مبتلة عليها آثار الماء ، تتخللها برك مالها من آخر ، وحجارة منثورة في البادية ثرا ، فجن جنونه ، وانطلق يصيح : ليلى ! ليلى ! يسار ! يسار ! ليلى ... ويهم شارداً على وجهه ، يدور بلا وعي ، وإذا بشيخ مسنّ من حكماء القرية يهتف به ثم يأخذه من يده ، فيتبعه سعد صاغراً ، حتى يجلسا على كومة من هذه الأكوام ...

— هذه حال الدنيا يا بني ... إن لله حكمة لا يعلمها أحد ، فلنصبر ولنرض بالواقع ، الحمد لله على كل حال ...

— ولكن ماذا جرى يا عم ؟ أين ليلى ، أين ابني يسار ؟

— هذا قضاء الله يا بني . لقد كنت نائماً ليلة أمس فسمعت

ضجة في الطريق ولغطاً ، فخرجت فإذا الناس مجتمعون ، وعلى وجوههم أمارات الذعر الشديد ، وهم يصغون في خوف شديد ورعب بيّن ، إلى صوت مجيب آت من بعيد ، فأصغيت فإذا صوت عميق مستمر لا ينقطع ، فجزعنا ولم ندر ما هو ؟ فقائل إنها ريح ، ولكنه ليس بصوت ريح ، وقائل هو من أصوات الجن ، وقائل إنه رعد ، وما هو كذلك ، فوقفنا وتهيأنا للنضال ، وحملنا السلاح ، وكان الصوت مستمراً ولكنه جعل يقوى ... ويقترب حتى تبينا فيه هدير الماء ... إنه السيل ! السيل ! وطارت هذه الكلمة على الأفواه ، فأسرع قوم إلى بيوت القرية العالية ، يحسبونه سيلاً كالذي عرفوا من السيل ، لا يبلغ هذه البيوت ؛ وخاف قوم فأسرعوا إلى الجبل ، وقد أعجلهم الخوف فلم يأخذوا معهم غطاء ولا وطاء ، وكنت ممن أمّ الجبل

— وليلى ؟ وليلى ويسار ؟

— لقد بقوا في البلد ... اسمع يا بني ، إنها لم تكن إلا ربع ساعة حتى بدا الهول ، نعوذ بالله ... لقد أقبل سيل علوّه أكثر من أربعين متراً ، يتكسر ويقذف بالصخور والحجارة والأشجار فغمر أعلى بيت في المدينة ، واختلط هديره العاتي بصراخ النساء وصياح الأطفال وأصوات الشباب ...

— وليلى ويسار ؟

وانحنى سعد على قدمي الشيخ يقبلهما بجنون ويصرخ :

— وليلى ويسار ؟ أرجوك يا عم خبرني عن ليلى ويسار ؟

قال الشيخ :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ... لقد أصبح الصباح وليس في المدينة حجر على حجر ، ولم يبق ممن كان فيها أحد . لقد وجدت الجثث طافية على وجه البرك وغارقة في الوحل ومطمورة بالأنقاض ، وجثث حملها معه السيل إلى بحيرة العتيبة ، ولم ينج الا من كان على الجبل ، بقي بلا مأوى ولا مال ...

— وليلى ويسار ؟ وليلى ويسار ؟

ووثب سعد هائماً على وجهه يصرخ وينادي :

لقد جنّ « سعد الخطار » حزناً على ليلى ويسار !

« بيروت » علي الطنطاري

التشريع والقضاء
في العهد الفرعوني
للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٤ —

أما الزواج عندهم فكان نوعين : زواج مدني تكتسب فيه الزوجة بالشراء ، وكان شبيهه في روما الزواج المعروف باسم Complio الذي كان خاصاً بالعامة ؛ وزواج ديني يعقد على يد أحد الكهنة ، وكان يقابله عند الرومان زواج Onfarreatio الذي كان قاصراً على الاشراف . وكان المتبع أن يحصل الزواج المدني قبل الزواج الديني الذي يقوم بعقده أحد رجال الدين ؛ فكان الزواج بذلك يتم أولا على حسب الأصول القانونية المدنية بطريق الشراء ثم يحصل الزواج الديني بعد ذلك

وكان ينص في عقد الزواج على العلاقة المالية بين الزوجين ؛ وكان هذا الاتفاق المكتوب في صلب عقد الزواج لا يخرج عن طريق من ثلاث : أولها أن يفصل مال الزوجة عن مال الزوج ، وفي هذه الحالة يكون للزوجة أن تتصرف في مالها دون إجازة زوجها . ثانيهما أن يخصص بعض أو كل أموال الزوجة لمساعدة الزوج للقيام بالإنفاق على الأسرة ، وفي هذه الحالة يجب على الزوج ردها بعينها إذا كانت عقاراً أو ردها بقيمها المبينة في صلب عقد الزواج إذا كانت منقولا . وثالثها أن يشترك الزوجان في بعض الأموال أو كلها . وسمح القانون للزوجة بأن تشترط في عقد الزواج أيضاً أن يدفع لها الزوج مبلغاً معينا كغرامة ونفقة لها إذا طلقها الزوج فأعطى لها حق الرهن العام على جميع أموال زوجها ضماناً لما يكون لها من الحقوق عليه . فلما جاء بوخوريس في القرن الثامن قبل الميلاد وضع القوانين التي تعتبر بحق أصل التشريع الحديث وأعطاه صبغة مدنية بعد أن كانت ذات صبغة دينية . ولقد تأثر بوخوريس عند وضعه شرائعه بقوانين حلفائه الأشوريين والكلدانيين فأخذ عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، فبعد أن كان العقد يتم عند قدماء المصريين قبل بوخوريس بقسم وبحضور